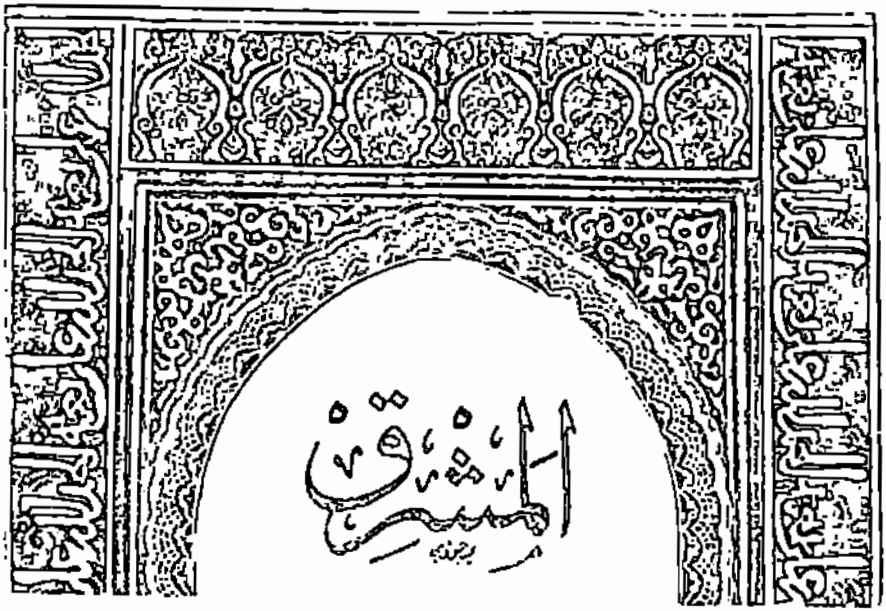

تشرين الاول ١٩٢٩

هل من نزاع

بين علمي الطبيعة وما وراءها ؟

للاب شرل ايلا اليسوعي

« هل قوّض العلم اركان الفلسفة ؟ » هذا عنوان مقال « رنّان » أنشأهُ « خاصّةً للمقتطف » الاغرّ السر اوليفر لدج . ففسحت له المجلة المذكورة ثلاث صفحات من جزء حزيران ، ونفخت منشئه بلقب « شيخ العلماء المعاصرين . »

ولعمري لو كان الغرض من مقتضيات « العلم الحديث » ، لأصابت الرصيفة المرمى ، وجاء اللقب طبقاً للملقَّب . فقد طالعنا المقال اربع مرّات وخمساً ، فلم نستخلص منه سوى عدّة اسئلة ، يطرحها الكاتب فيكاد لا يأتي على واحد منها بجواب شافٍ . ولكن حدّث ولا حرج عمّا في طيّات الاسئلة من الاضاليل المقدَّرة ، التي يجتاز بها ذهن القارئ فيخالها عقائد علمية راهنة لا يسوغ الارتياب حيناً في صحتها ، وان كانت ممّا لا يقوم عليه برهان ، بل ممّا يرذله العقل السليم فضلًا عن الفلسفة الحقّة .

من ذلك زعم المتشيّ ان « الكلّ » يسير في سبيل التقدّم الى الكمال النهائي . ومعنى « الكلّ » هنا انما هو الله. فقد حطّوا من قدره ، عزّ وجلّ ، الى حدّ أن جعلوه هو والعالم المخلوق شيئاً واحداً ، يتكيّف بتكيّفاته ولا يتميّز منه البتة ، كأنه تعالى ليس الكمال الثابت الذي لا ينقصه شيء ولا يحتاج ان يكتمل . ومن ذلك ايضاً نسبة التصوّف القيم الى الحكمة الخالدة ، اي مجموع الحقائق الراهنة الاولية التي ما كفر بها احدٌ الّا زاغ عن محجة البصيرة النيّرة . وان سألتَ ما السبيل الى التخلّص من هذا التصوّف الموهوم ، اجابك السر اوليفر لدج : عليك « بالايمان في ازدياد قيمة الوجود (؟) وفي مقدرة العقل البشري على تفهّم الحقّ المجرّد.» فتعساً للبشرية التي شاءت « الفلسفة الحديثة » ان تجعلها تتردّد بين مزلقتي الايمان المزيّف والتصوّف !

كل هذا وغيره من نوعه تقرأه في « الصفحات الثلاث » ، او في خلال اسطرها ، يجزم به الكاتب او يقدّره أكيداً بدون ما دليل ولا حجة ، كأنه الحقّ الخالص الذي لا شبهة به . وقد استرعت نظري في عجالة السر اوليفر لدج مشكلة هي في نظره عقدة تكاد لا تحلّ ، وهي مسألة التوفيق بين الفلسفة والعلم الحديث . فهو يزعم ان بينهما نزاع عنيف . ففي رأيه ان الفلسفة — والمراد بها هنا علم ما وراء الطبيعة (*La métaphysique*) — تُقرّ وجود العلل وتأثيرها في كيان المعلولات ، والعلم يرى أنّ « زمن العلّة والمعلول قد انقضى » وأنّ جلّ ما يدلنا عليه الاختبار هو « تتابع الظواهر الطبيعية » (*La succession des phénomènes*) بعضها لبعض ليس الّا.

ترى هل النزاع الموصوف واقعيّ ام موهوم ؟ هذا ما نريدُ الافصاح عنه موجزاً فيما يلي.

ايضاحات في ماهيّة العلّة وانواعها

أمامك تمثال لنابوليون . أمعن النظر فيه تجد كيانه ، بالهيئة التي يبرز بها لعينيك ، منوطاً بامور اربعة وهي :

١) شكل الامبراطور الذي نُحتَ الرخام على مثاله فصار تمثالاً له . فالشكل المذكور له تأثيره في كيان التمثال ، ولذلك يُدعى « علّة صوريّة.»

٢) مادّة التمثال ، وهي الرخام ، لولاها ولو لم تُحوَّل صورةً لنابوليون ، لمَا وُجد تمثاله . فوجودُه منوطٌ بوجودها ، لذلك سُمّيت « علّة ماديّة »

٣) النحّات الذي صنع التمثال اذ نظر الى المثال ، قائمًا امـام عينيه او مطبوعًا في ذهنه ، فصوّره نقرًا في الرخام ، فأثّر في وجود التمثال بفعلـه ، فسمّيَ « علّة فاعلية »

٤) ولا ريب ان النحّات انما نشط للعمل لغايةٍ دفعته اليه ، فتوخّى ، امّا ربح المال ، وامّا احراز المجد ، وامـا التفنّن ، وامّا كلّها معـاً . فالغرض الذي استفزّه للعمل يُدعى « علّة غائية »

ومن ثم يبدو لك التمثال متوقفاً كيانه الحاضر وصيرورته على هذه الاشيا. الاربعة وهي المادة ، والصورة ، والعلّة الفاعلية ، والغاية . ولكل منهـا في التمثال تأثير خاص يختلف به عن غيره ويقوم به وحده دون سواه .

فالعلة اذن اجمالًا هي كل ما له تأثير حقيقي في كيان غيره ، او كلُّ ما بفضل تأثيره يأتي شي. على ما هو .

ومن ثمَّ ترى ايضاً بما تختلف العلّة عن الامر السابق (*antécédent*) وهو ما يحدثُ او يُدرَك قبل آخر يُدعى تابعاً (*conséquent*) . وقد لا يكون للأول ادنى تأثير في كيان الثاني . فالليل مثلًا يسبق النهار ويتبعه ، ومـع ذلك فلا يُدعى احدهما علّةً الآخر . فانهما يتتابعان بدون ما تأثير للسابق في تابعه . وكذا يولد زيد بعد اخيه عمرو ، فلا يُقـال ان الاكبر علّة وجود الاصغر .

وتتميّز ايضاً العلّة الحقيقية من الشرط ، وهو ما لا بدّ منه كيما تاتي العلّة الفاعلية عملها . الّا انه لا يؤثّر في كيان المعلول . فان علّة النور في غرفتك هي الشمس الساطعة . وامّا كون النافذة مفتوحة فهو شرط ضروري ، ولكن ليس الّا .

اخيرًا لا بدّ من تميز العلة من الفرصة التي تُسهّل فعل العلّة الفاعلية ، ولا شركة لها معها في ايجاد المعلول . فاذا مرَّ زيدٌ على مدخل مقهىً يغتنم الفرصة عمرٌو ، وهو هناك ، فيدعوه الى شرب الخمرة . فـان رضي وسكر ، كان

لسكره علّتان : احداهما طبيعية وهي شراهته وانحراف ارادته الحرّة ، والاخرى ادبية وهي اغراء زيد له . أمّا مروره بالمقهى فيجوز ان يُسمّى سبباً على سبيل التوسع في المعنى ، لكنه ليس في الحقيقة سوى فرصة سانحة .

ومما سبق يتبيّن انه لا حاجة الى التصوّف ، ولا الى الايمان بوحي ما ، لفهم معنى العلّة . بل هو العقل السليم المجرّد من الاوهام يفهم ما يراد بها ويميزها ليس من معلولها فحسب ، بل منه ومن غيره مما لا تأثير له في وجوده .

وجود العلّة الفاعلية خصوصاً

ولكن ترى هل للعلّة اجمالاً ، وللعلّة الفاعلية خصوصاً ، وجودٌ واقعي بمعزل عن الذهن البشري ، ام هي من مختلقات « التصوّف العقيم » ؟

قال تان (Taine)[1] :

اذا ما قلنا انّ السابق يُحدث التابع فلسنا نعني الصلة الخفية التي يربط بها العلّة بالمعلول على ما وراء الطبيعة ، ولا القوّة الباطنية وغير المادية التي يدعيها بعض الفلاسفة بين المُحدث والحادث . . . فاننا لا نرى ثمة شيئاً من ذلك . . . وانما نلاحظ تتابعاً ثابتاً . . . فيكفي وجود السابق لكيما يخلفه التابع . . . . »

وعلى الرأي عينه يكاد يكون ستيوارت ميل (Stuart - Mill)[2] وهيوم (Hume)[3] والوضعيون عموماً .

ومرجع مستنداتهم الى انّ تأثير العلّة بالمعلول ، اي فاعليتها ، امرٌ لا تتناوله الحواسّ في الظواهر الخارجية ، ولا يدركه ضمير الانسان فيما يحدث ضمن داخليته . وانما يدلّ الضمير والحواسّ على تتابع الوقائع فلا سبيل للذهن ان يتناول من القوى المذكورة معرفة ما به قوام العلّة الجوهري ، وهو صلة التأثير التي تربطها بالمعلول .

ولا نكير ان كيفية تأثير العلّة بالمعلول سرٌّ غامض ، فاننا لا نُدرك «كيف» يتحوّل ما لا وجود له ، من العدم الى الوجود ، ولا كيف يؤتيه فاعله

١) *L'Intelligence, liv. 3, chap 2 — t. II, p. 304*

٢) *Logique, Liv. 3, chap. 5.*

٣) *Essai sur l'Entendement humain, Essai l'II, partie 2*

الكيان . ولكن متى كان جهلُ كيفية الشيء دليلًا على عدم وجوده ؟ افتنكر انَّ نموّ جسم الانسان ينشأ عن الاكل لاننا لا ندري كيف يتحوّل الخبز دماً ولحماً وعظماً.

كذلك قد يتقيَّد وجود معلول بامور عديدة يعسر ، بل غالباً يستحيل عليك ، ان تقول ايها هو علّته الحقيقية . بل قد يرشدك الاختبار والامتحان المتواصل ، ولاسيما اذا تذرعتَ بقواعد العلم الحديث ، الى اكتشاف نواميس طبيعية جزيلة الفائدة . ومع ذلك لا تتوفّق الى ايجاد العلّة الحقيقية للظواهر التي اختبرتها . ترى مثلاً ان الجزر والمدّ يتعاقبان مع توالي ايام القمر على قاعدةٍ محدودة تمكّنك من تنظيم جدول مدقّق ينبئ سابقاً بحدوث كليهما في يوم وساعة ودقيقة معيّنة . ولكن هل القمر نفسه ، ام عامل آخر ، هو علّة الجزر والمدّ الحقيقية ؟ هذا ما لم ينجلِ تماماً للباحثين وقد لا ينجلي ابداً.

على انَّ العجز عن تعيين العلّة لا يترتب عليه عدم وجودها . فان عثرت على قتيل مخضب بدمائه في الشارع ، افتنكر وجود القاتل لانك لا تعلم من هو ؟

وكذا العلم الصحيح لا ينفي وجود العلل وان كان يتعذّر عليه غالباً تعيينها لكل من معلولاتها . بل كثيرًا ما لا يهتم هذا التعيين ، اذ حسبه الوقوف على السوابق التي يليها حادثٌ حسيّ بنوع متواصل لازم ، والظروف التي يتمّ فيها ، فيتمكن من تحديد الناموس الذي يجري عليه هذا الحادث.

ولو انكر العلم وجود العلم لنقض بنفس الفعل ركناً من اركانه . ذلك لانه يستند في مقرّراته الى الاختبار . والاختبار من اكبر الادلة على حقيقة العلل . فهل يكون الاختبار مرشدًا اميناً للعالم في استنباط النواميس الطبيعية ، وفي الوقت نفسه خائناً للفيلسوف في هدايته الى واقعية العلل ؟

افلا يشهد لك اختبارك الباطني بلسان ضميرك انك انت عينك علّةٌ حقيقية لامور كثيرة . او لا تشعر ان الحركة في رجليك ويديك عند المشي والشغل ، وفي عينيك عند النظر ، وفي اذنيك عند السمع ، هي ناشئة عن فعل منك ؟ بل القصد وحده ، حتى ان كنت لا تنجزه بعمل خارجي ، لا يمكنك

ان تأتيه دون ان تدرك في الوقت نفسه انك فاعلٌ ومُؤثِّر . اجل ان الضمير المباشر وحده لا يطلعك على التأثير في كنهه ، لكنه يُريك نفسك مؤثِّرًا الكيان في كل عمل تأتيه . ثم يأتي الذهن بقوته المجرِّدة فيدرك التأثير في حدّ ذاته .

وما يدلُّنا عليه الضمير فينا تُنبئنا الحواسّ الخارجية عن حدوثه في غيرنا وهنا ايضاً ليس للحواسّ ان تدرك تأثير العلل الخارجة في معلولاتها ، بل للحواسّ ان ترى البشر والحيوان والنبات والجماد تُحدث بعضها في بعض ما قد اختبرناه في ذاتنا . ولا يلبث الذهن ان يُدرك بقوته المجرِّدة تأثيرها في كيان معلولاتها المختلفة . فمن يشكّ انّ علّة وجود الجرو اسد ولبوة ، وان العنب تنتجه الكرمة ، وان الماء في القدر تسخنه النار المتقدة تحته .

وما ضرّ هذه الحقائق كونها بسيطة بديهية أجمع عليها العموم . فان من مقتضيات العلم الصحيح ان يزيد على كذا حقائق اولية وان يستشرها طلباً الى غيرها اسمى منها ، لا ان ينقضها ويرذلها بحجّة أنها امتعة مشاعة . فالحقيقة علمية كانت ام عاميّة ، هي حقيقة لا تكذّبها حقيقة . ومما يؤيّد قولنا هذا أن الذين ، بين الفلاسفة والعلماء ، حاولوا نقض الحقائق الاولى ، تراهم إما يوحّدون الكائن وعدمه ، كما فعل هيغل (Hegel) مثلاً ، وإما لا يعدلون عنها الّا للاعتصام بايمان جديد ، لو طبقنا عليه مزاعمهم في الايمان الحقيقي ، لكان هذا كحلاً وكان ايمانهم عمىً .

او ليس السر اوليفر لدج يقول : « لكي نتقدّم ، ونخلص من التصوّف العقيم ، لا بدّ لنا .... شيء من الايمان . »

فليس اذاً العقل السليم ، بل الايمان العقيم هذا ، الذي يرى ، في قضيّة العلّة والمعلول ، نزاعاً بين العلم الصحيح والفلسفة الحقة .